عبد الحليم حافظ

آخر فرسان الرومانسية

- توفيت أمه أثناء ميلاده، وتسولت له أخته الحليب من نساء القرية
- رفضه الجمهور فى الإسكندرية وأقرضته تحية كاريوكا تكلفة رحلة العودة إلى القاهرة
- حبيبته الأولى.. مدام «شرقاوية» وزوجها صعيدى.
- تزوجته سعاد حسنى سراً ٦ سنوات.
- نصحه عبد الناصر بالزواج ليجد «واحدة ترعاه».
- انتقد أغنية لأم كلثوم فأعلنت عليه الحصار حتى أعتذر
- أغانيه تحتل المراتب العليا فى المبيعات

أحب العرب الوحدة العربية، لكنهم لم يتفقوا على كيفية التعبير عن ذلك الحب. وأحبوا جمال عبد الناصر، واختلفوا فى حبه، وحتى فى الموقف منه. وأحبوا أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ، ولم يختلفوا على حبهم، فقد رحل عبد الحليم «العندليب الأسمر» فى نهاية شهر مارس (آذار) سنة ١٩٧٧م، ومازالت أغانيه تحتل المراتب العليا فى المبيعات غير الموسمية للمطربين العرب الأحياء والأموات.

لم تحتفل أسرة عبد الحليم حافظ بميلاده ولم تستقبله نساء قرية «الحلوات» بالزغاريد وإنما العويل والصراخ، لأن أمه رحلت لحظة مجيئه إلى الدنيا، لكن الدنيا كلها كانت على موعد مع ميلاد ساحر القلوب «العندليب الأسمر».

عاش «حليم» أيامه الأولى يرضع من كل سيدات القرية، فقد كانت أخته الكبيرة «علية» تأخذه وتدور به على سيدات القرية اللاتى لديهن أطفال رُضَّع وتطلب إليهن إرضاعه، وكانت نساء القرية يشفقن على ذلك الطفل المسكين ويمنحنه حبهن.

تلقى عبد الحليم شبانة دراسته الابتدائية فى ملجأ للأيتام، وعندما أتم دراسته فى الملجأ، انتقل إلى القاهرة ليلتحق بمعهد الموسيقى العربية، وهو فى الحادية عشرة من عمره، وأقام مع شقيقه إسماعيل الذى كان يعمل موظفاً فى وزارة الصحة، والتحق بقسم الأصوات فى المعهد، وتقدم لدراسة آلة لم يتقدم لها أحد وهى «الأبوا» وهى من آلات النفخ، مثل الناى الحزين، وأنهى دراسته بمعهد الموسيقى، وتقرر تعيينه مدرساً للموسيقى فى وزارة المعارف العمومية وعمره ١٧ عاماً. لكنه فوجئ بأن عليه أن يقوم بالتدريس فى ثلاث مدارس للبنات موزعة في طنطا والمحلة وسمنود، وتحمل المشقة والتعب من أجل المرتب الكبير، الذى

كان يحصل عليه آنذاك، وقدره ١٧ جنيهاً، إلا أنه كان يتأخر كثيراً، بسبب تأخر القطار، مما يعرضه للمساءلة والجزاءات واستدعاه وكيل وزارة المعارف (التربية والتعليم حالياً)، أحمد نجيب هاشم وسأله عن سبب تأخره عن مواعيد حصصه، فلم يجد عبد الحليم إجابه إلا قوله «لا أدرى» فاعتبرها وكيل الوزارة نوعاً من التحدّى والإصرار على الخطأ، لأنه لم يحاول أن يعتذر أو يعد بأن يصلح من أخطائه، فقال له: «أنت لا تصلح موظفاً وليس أمامى إلاّ فصلك من العمل».

وكان قرار فصل عبد الحليم من وزرة المعارف بداية قصته الحقيقية وانطلاقته مع عالم الغناء والفن.

بداية المشوار

كانت البداية عندما دق جرس باب الشقة، وكان عند الباب صديقه وزميله فى المعهد، كمال الطويل، جاء ليخبر عبد الحليم بأن الإذاعة بصدد تكوين فرقة موسيقية جديدة، وطلب منه أن يتقدم ليعمل عازفاً فى الفرقة، وفرح عبد الحليم بهذا الخبر وأسرع بتقديم أوراقه، وكان هو الوحيد من بين خريجى المعهد الذى يجيد العزف على آلة «الأبوا»، ونفعته هذه الميزة، فنجح فى الامتحان وتم تعيينه بمرتب خيالى، لم يكن يحلم به وهو ٦٠ جنيهاً شهرياً.

لكن الإنسان لا تتوقف أحلامه وطموحاته عند حدّ، فمعُ مضى الوقت بدأ عبد الحليم يشعر بأنه لم يحقق حلمه الأكبر، فمكانه الصحيح ليس هو الوقوف خلف المطربين، بل مكانه هو الوقوف أمام العازفين ليكون هو المطرب، وتأخر المطرب إبراهيم حمودة مرة عن موعد تسجيل إحدى أغانيه، وكان عبد الحليم يشارك فى عزف لحن هذه الأغنية ويحفظ اللحن عن ظهر قلب فذهب إلى حافظ عبد الوهاب، سكرتير لجنة الموسيقى والغناء فى الإذاعة، والمشرف على تسجيل اللحن، وأخبره بأنه يحفظ اللحن ويستطيع أن يسجله فوراً، بدلاً من إبراهيم حمودة، الذى تغيّب، ولكن الفرصة هذه المرة لم تكن كاملة، فبعد أن سمع حافظ من عبد الحليم، وأُعجب بصوته فوجئ بإبراهيم حمودة قد وصل لتسجيل

الأغنية، وكانت فكرة التقدم للغناء أيضاً من اقتراح كمال الطويل، الذى كان واثقاً بقدرة عبد الحليم على ذلك.

ودخل عبد الحليم الأمتحان، لكنه رسب مرتين متتاليتين، وقالت اللجنة إنه يغنى مثل الخواجات، وقالت فى المرة الثانية إنه صوت جيد لكن «ما فيهوش قفلة»، وكان عبد الحليم فى كل مرة يُذهل من هذه القرارات الغريبة، التى لم يكن يفهم لها معنى، وحاول حافظ عبد الوهاب إقناع اللجنة لكنه فشل.

وهكذا تسبب مجموعة من الملحنين القدامى ومستشار اللجنة مصطفى رضا مستشار الإذاعة الفنى فى سقوط عبد الحليم مرتين، وتم تغيير اللجنة وشُكلت لجنة جديدة من بين أعضائها الموسيقار محمد عبد الوهاب و«كوكب الشرق» المطربة أم كلثوم.

وتوقف عبد الوهاب طويلاً أمام صوت عبد الحليم وأعاد الاستماع لشرائطه أكثر من مرة، وقال بعدها، «هذا صوت جديد، وآداء جديد واللحن أيضاً جديد»، واعتمدت اللجنة اللحن وقررت إذاعته، فكتب محمد عبد الوهاب موسيقار الأجيال شهادة ميلاد لعبد الحليم حافظ، وفتح له باب الشهرة والمجد وأعطاه فرصة طالما تمناها، وعوّضه عن ظلم اللجنة السابقة، وسرعان ما زفّ حافظ عبد الوهاب الخبر لعبد الحليم، لكن ثمّة مشكلة بسيطة وهى أن عبد الحليم كان له أخ وكان معتمداً فى الإذاعة هو إسماعيل شبانة، فخشى عبد الحليم أن يختلط الأمر على المستمعين، فاقترح عليه كمال الطويل أن يصبح اسمه عبد الحليم حافظ.

الفشل الأول

وبعدها طلب عبد الوهاب مقابلة عبد الحليم حافظ، فذهب إليه عبد الحليم في مكتبه متوجساً، فقد قابله منذ سنة تقريبا فى الإسكندرية ورفض عبد الوهاب الاستماع له، وحاول أن يعطيه بعض النقود ظناً منه أنه جاء يتسول بعض المال

كغيره لكن هذه المرة اختلف الأمر، فعبد الوهاب هو الذى طلب رؤيته وقال لدى دخول عبد الحليم: «أظن أنى رأيتك قبل ذلك».

فقال حليم: «نعم رأيتنى فى الإسكندرية، وقص عليه ما حدث، فبادر عبد الوهاب إلى الاعتذار ثم طلب منه أن يغنى، فغنى من ألحان الطويل والموجى ثم طلب منه أن يغنى شيئاً من أغانى عبد الوهاب، فغنى «جبل التوباد»، فدمعت عينا عبد الوهاب من شدة التأثر والفرح وأنهى اللقاء على وعد بأن يسجل له أسطوانات مع شركة «كايرو فون».

لكن لم يظهر الأمل الفعلى حتى طرق «المعلم صديق» أشهر متعهد حفلات باب عبد الحليم ليعمل معه شهراً فى الإسكندرية، بواقع ٥ جنيهات عن الليلة الواحدة، فطار عبد الحليم فرحاً ووقّع العقد وسافر إلى الإسكندرية، وعلى مسرح الإسكندرية لقى عبد الحليم من المصطافين ما لم يلقه أى مطرب، سخرية واستهزاء لضآلة حجمة وصغر سنه، وكان عبد الحليم قد أعد أغنية «صافينى مرة» لتكون هدية لهذا الجمهور، ولكن بمجرد صعود عبد الحليم، حتى انطلقت الهتافات «أنزل... انزل» لكن حليم لم ييأس، وظل ١٠ أيام يصعد إلى المسرح وظل الجمهور لا يستجيب، فرفض تقاضى مبلغ ٥٠ جنيهاً، وقال للمعلم صديق، إنه لا يستحقها، واقترض خمسة جنيهات ليسددها فى ما بعد، من تحية كاريوكا، ليعود بها وصديقه محمد الموجى من الإسكندرية.

لم يكد عبد الحليم يعود من الإسكندرية حتى قابله مسؤولو الإذاعة بالمساءلة عن سبب غيابه وسفرة إلى الإسكندرية دون إذن أو عذر، فشعر عبد الحليم بالاختناق وتذكر أحمد نجيب هاشم وكيل وزارة المعارف، الذى فصله من التدريس، فقدم استقالته من الإذاعة رافعاً شعار «أكون أو لا أكون».

عيد الثورة الأول

وكان عبد الحليم قابعاً فى بيته لا يجد عملاً ويعيش فى قمة اليأس، والإحباط بعد الذى حدث له، لكن اتصل به وجيه أباظة مدير الشؤون المعنوية فى الجيش، ليخبره بأنه سمع عن صوته الجميل ويسأله عما إذا كان يوافق على الاشتراك

والغناء فى حفل عيد الثورة، الذى سيذاع يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٣م بمناسبة الذكرى الأولى لقيام الثورة، وسارع عبد الحليم بالموافقة والترحيب، وطلب منه وجيه أباظة أن يستعد للحفل الذى سيقام فى مسرح الأندلس، المسرح الذى أقيم خصيصاً للحفل فى الحديقة ويتسع لثلاثة آلاف متفرج.

وكان حفل الأندلس بالنسبة إلى عبد الحليم هو الفرصة الأخيرة والحاسمة. فإما أن ينجح ويصعد إلى القمة، أو أن يفشل ويسقط فى هاوية النسيان.

وقرر «حليم» أن يغنى فى وقت يسمعه معظم الناس، واختار الموعد بعد نشرة أخبار الحادية عشرة، وتوجه إلى «الإمبراطور» يوسف وهبى وطلب أن يعرف موعد صعوده على المسرح فسخر منه يوسف وهبى، إلا أن عبد الحليم طلب أن يغنى عقب نشرة الأخبار وأصرّ على موقفه، فأحس وهبى بك بموهبته وقدّمه بنفسه، وكانت الفرقة الموسيقية المكونة من ١٥٠ عازفاً قد أخذت أماكنها فى مشهد مهيب، وتقدم عبد الحليم ليُصدم الجمهور، بضآلة جسمه، لكن الجميع كانوا ينتظرون ذلك المطرب الذى قدمه يوسف وهبى بنفسه، وأعطى عبد الحليم إشارة البدء للفرقة الموسيقية، التى عزفت لحن «صافينى مرة» انطلق صوته بقوة وصفاء وجمال، صوت استولى على الجمهور الذى ظل صامتاً وعبد الحليم كان منطلقاً، حتى انتهى من «الكوبليه» الأول للأغنية، فإذا بالأكف تنطلق فى تصفيق حاد يعلن مولد نجم جديد عملاق فى سماء الفن.

وسرعان ما وقع مع عبد الوهاب عقد احتكار ليسجل لعبد الحليم أسطوانات ويقوم بتمثيل فيلمين يعطيه عن كل منهما ٤٠٠ جنيه.

لحن الوفاء

كانت بداية عبد الحليم مع العمل السينمائى بداية قوية ومشجعة، فقد أقبل على العمل بكل طاقته وحيويته وبفرحة وحب شديدين، لأنه كان يريد أن يثبت قدميه ويؤكد نجاحه، الذى انتظره وتمناه وسعى إليه طويلاً، كان يحلم وكانت السينما بالنسبة إليه بداية الطريق إلى تحقيق هذا الحلم، لهذا عندما أمسك

بالفرصة وبدأ العمل فى فيلم «لحن الوفاء» أخلص فى العمل وتفانى فيه حتى لا تضيع الفرصة. ويتبخر الحلم، ثم شارك فى بطولة فيلم «أيامنا الحلوة» مع فاتن حمامة وعمر الشريف وأحمد رمزى.

لكن عبد الحليم لم يستمتع حقاً بحياته الجديدة، فداهمه المرض، وظهر عليه الإعياء والتعب وبدأت رحلة العذاب متزامنة، تقريباً، مع رحلة المجد والشهرة.

عاد عبد الحليم ذات يوم من الأستديو، وكان يتصوّر أن ما يُحس به مجرد إرهاق، واستدعت له أخته عليه، أحد الأطباء، وذلك بعد أن أُصيب بنزيف كثيف للدم من فمه، فى شكل كُتل غير سائلة، وطلب الطبيب من أخت حليم أن تحكى له عن نشأته والأمراض التى أُصيب بها، وتذكرت «علية» أنه كان قد أصيب بمرض البلهارسيا وهو في العاشرة من عمره من كثرة نزوله الترع، للاستحمام مع الأطفال الآخرين. وأردك الطبيب أن البلهارسيا هى السبب، وأوصاه بالراحة التامة، لكن عبد الحليم تمرد على تعليمات الطبيب، فقد أقبلت الدنيا عليه وفتحت له صدرها، ولن يتردد ولن يتراجع وعاد إلى الاستديو ليكمل «لحن الوفاء» و «أيامنا الحلوة» وظل متحدياً المرض، الذى كان قد بدأ يهاجمه بشدة، ودخل معه معركة شرسة وسافر بعد شهور إلى لندن ليعرض نفسه على أطبائها. وعاد إلى القاهرة موفور الصحة مع التشديد عليه بعدم الإرهاق أو الإفراط في الطعام.

الحب فى حياة العندليب

رغم أنه كان الفتى الذى ملأ الدنيا حباً، إلاّ أنه عاش محروماً من هذا الحب، فلم تكتمل له قصة حب واحدة، وظل طوال عمره القصير يبحث عمن يقول له «أنا لك على طول خليك ليا» وقيل الكثير عن علاقاته العاطفية بين نجمة مشهورة وأخرى غير مشهورة، إلا أن أهم قصة فى حياة الفتى الأسمر هى تلك التى قال لها «كان يوم حُبك أجمل صدفة» وكان يحس معها بصوت يتردد فى أعماقه

يقول: «كفاية نورك عليا» فعاش يطارد ذكرياتها وأطيافها الجميلة في كل مكان، فهى القصة التى استولت بطلتها على كيانه كله، رغم أنها لم تعش أكثر من خمس سنوات كانت بدايتها صدفة، فى ذات يوم وفى الإسكندرية وبالتحديد فى الطابق الثالث وفى مصعد إحدى البنايات، دخلت فتاة سمراء نحيلة رائعة الجمال عيناها زرقاوان كحيلتان، يفوق سحرهما أى جمال رآه عبد الحليم فى حياته، شعرها الأسود كالليل ناعم وطويل، أسرت الشابة عبد الحليم بجمالها الخلاّب، أحبها من أول نظرة، وأحبته من أول نظرة، وكانت الفتاة الجميلة تحضر حفلات «حليم» فى الإسكندرية وترسل له قصاصات من الورق كتبت عليها «أرجوك غنى صافينى مرة»، ولم يكن حليم يستطيع أن يكلمها لأنها كانت دائما محاطة بالأهل والأصدقاء، فطلب من أصدقائه جمع المعلومات عنها، لأنه اتخذ قراره بالزواج بها بعد أن اشتعل لهيب الحب فى قلبه، واستشعر بأنها تبادله المشاعر ذاتها من قراءة العبارات المكتوبة فى عينيها، لكنه صُدم عندما علم أنها متزوجة ولديها ولدان، كان الخبر أكبر من أن يتحمله قلب العندليب الممزق من العذاب وسالت دموعه على خديه وبكى، لكن من هى هذه الفتاة؟ إنها «ديدى» أو «ليلى» ابنه أحد أعيان محافظة الشرقية ومن أعرقهم نسباً وأكثرهم ثراء، تزوجت فى العشرين من عمرها برجل من أكبر العائلات فى صعيد مصر، ويعمل فى السلك الدبلوماسى.

ورغم كل محاولاتها الخلاص من زوجها والارتباط بعبد الحليم إلا أنها لم تستطع أن تفلت من أسر زوجها وأسرتها، حتى فقدت الرغبة فى الحياة وماتت، لكن حب عبد الحليم لها لم يمت.

سندريلا ... والعندليب

لم يحدث طوال تاريخ الفن أن انشغل الناس بموضوع مثلما حدث مع قصة العندليب الأسمر وسندريلا الشاشة سعاد حسنى، القصة التى انقسم حولها الجميع طوال ما يزيد على ٤٠ عاماً، فريق يؤكد أنهما تزوجا فى مدريد، عام ١٩٦٤م، وفريق آخر يؤكد أنهما لم يتزوجا وأن كل ما قيل مجرد شائعات، وبين

هؤلاء وأولئك فريق ثالث، يؤكد أيضاً، أن زواجهما حدث فعلاً، ولكن كان زواجاً عرفياً لا يعلم به إلا عبد الحليم وسعاد وشاهدى العقد وهذا ما أكده الكاتب الصحافى مفيد فوزى، باعتراف سعاد حسنى نفسها عندما قابلها فى باريس. وقالت له: «حصل زواج عرفى واستمر ٦ سنوات» وأضافت «إن عبد الحليم كان يعتبر أن الزواج يؤثر فى حياة الفنان وأنا لم يهمنى الإعلان لأنه هو كان أهم عندى من كل شئ».

كان عبد الحليم يبحث دائما عن الحب ويتشبث به لأنه يعنى له الحياة، ودخلت فتيات كثيرات قلب وحياة عبد الحليم، وكانت آخرهن فتاة سورية كانت تداوم على زيارته يومياً فى المستشفى فى باريس.

وامتدت معانى الرومانسية عنده لتؤكد أن الرومانسية حالة من الحب تجعل الإنسان يهيم عشقاً بأرضه ووطنه، لذا نجده يغنى «ابنك ياقدس زى المسيح.. لازم يعود»، وكاد يدفع حياته ثمناً لهذه الأغنية، التى كانت رسالة حب منه إلى الوطن الجريح فى سنوات ما بعد النكسة، ويقال إن المخابرات الإسرائيلية «الموساد» حاولت اغتياله وهو يؤدى هذه الأغنية فى قاعة «ألبرت هول» فى لندن، كتب كلمات الأغنية عبد الرحمن الأبنودى، ولحنها بليغ حمدى، وغنى العندليب منذ عام ١٩٧٢، للقدس الجريح «يا كلمتى لفى ولفى الدنيا طولها وعرضها، وفتحى عيون البشر للى حصل على أرضها، على أرضها طبع المسيح قدمه.. على أرضها نزف المسيح دمه، فى القدس فى طريق الآلام وفى الخليل رنت تراتيل الكنايس فى الخلا صبح الوجود إنجيل...».

لم يكن عبد الحليم أقل وطنية من شباب جيله ومعاصريه، وكان صديقاً للشعوب العربية والعديد من زعمائها، وغنى لهم «ياهلى يا هلى».

حليم وعبد الناصر

وعلى الصعيد الداخلى استطاع عبد الحليم أن يقيم علاقة صداقة قوية مع

الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ويصبح مقرباً لقلبه، وبدأت العلاقة باتصال هاتفى من الرئيس عبد الناصر ليطئن على صحة عبد الحليم، ويخبره خلالها بأنه ثروة قومية يجب الحفاظ عليها، ثم أوصاه بأن يتزوج فقال: «أنا عاوزك تتجوز علشان تلقى واحدة ترعاك».

وهكذا نجد حليم يتمتع بعلاقة طيبة خارج مصر وداخلها، ترى ما هى علاقته بزملائه الفنانين والمطربين؟ فى الوقت الذى بدأ عود عبد الحليم يشتد إذا بضربة قاضية توجه إليه لمجرد رأى أبداه فى أغنية لأم كلثوم قائلاً هذه الأغنية ليست من مستوى أم كلثوم، فأعلنت الحرب عليه، وكانت أول ضربة هى منع أغانى حليم من الإذاعة وشطب اسمه من قائمة المطربين، إلا أن عبد الحليم رفض الاعتذار لها حتى ضاقت به الحال، فاضطر للاعتذار وإرضاء، أم كلثوم لتعود أغانيه مرة أخرى إلى الإذاعة وبكثافة أكثر من ذى قبل.

نهاية المشوار

بالرغم من كل هذا النجاح وهذه الشهرة لم يستطع عبد الحليم أن ينجو من المرض الفتاك (البلهارسيا) الذى قضى على كبده تماماً، وحملت أمواج الأثير الخبر الصاعق إلى كل أرجاء الوطن العربى «توفى اليوم فى مستشفى «كينجز كولدج» فى لندن، فنان مصر والشرق، والفنان الشاب المحبوب عبد الحليم حافظ».